مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

المدينة الإسلامية وخصائصها

د. محمد المعتصم
مدرس بقسم الجغرافية

تصنيف المستوطنات البشرية لدى جغرافيي المسلمين :

نطالع فى كتابات الجغرافيين المسلمين حتى القرن الرابع الهجرى كثيرا من المصطلحات المستخدمة فى تقسيم أقطار العالم الاسلامى الى أقسامها الادارية ومن هذه المصطلحات الاجناد والاقاليم ، والكور ، والمخاليف (مفردة مخلاف) والاستان والطسوج والرستاق والمصر والقصبة والمدن والقرى ولكل منها دلالته العمرانية ٠

فأكبر الاقسام الادارية الاقليم ، والجند ، والاستان : فأما تعبير اقليم فمأخوذ عن اليونانيين وقد استخدم فى كثير من أقطار العالم ، ويطلقونه على منطقة جغرافية تشتمل على عدة مدن وقرى فضلا عن الاستخدامات الاخرى ، أما الجند : فهو أحد اقاليم الشام ، ويقتصر استخدامها على أقاليم الشام ومن أمثلتها جند قنسرين ، وجند فلسطين ، وجند حمص ، وجند دمشق ، وجند الاردن والاجناد الخمسة كلها من الشام وأما الاستان : فقد استخدم ليدل على أحد أقاليم خمسة قسمت اليها فارس ٠

وأما الكورة ، والمخلاف : فتطلق على أقاليم أقل اتساعا من الاقليم أو الجند أو الاستان فقد يضم الجند أو الاقليم عدة كور ٠ وتدل الكورة على صقع يشتمل على عدة قرى ولها قصبة تسمى باسمها ، أو يجرى فيها نهر تشتق اسمها منه ٠ والكورة اسم فارسى أيضا ٠ وأما المخلاف فهو مرادف

للكورة ويستخدم فى اليمن(١) ٠

وأما الرستاق والطسوج فتدل على اجزاء من الكور وكلا المصطلحين فارسى الاصل ويدل على موضع فيه مزارع وقرى(٢) ٠

وفى كتابات الجغرافيين المسلمين نجد خلطا فى استخدام هذه المصطلحات، فلا نجد فروقا واضحة بينها خاصة وان هذه المصطلحات تستخدم من اقاليم متباينة ، وتستخدم مصطلحات كل اقليم عند دراسة العمران به ٠

أما المستوطنات البشرية فى العالم الاسلامى فقد صنفها الجغرافيون المسلمون فى القرن الرابع الهجرى تصنيفا هرميا حسب ما يناط بكل مدينة من وظيفة تؤديها ودور سياسى تلعبه على النحو التالى :

١ ــ الامصار : وهى البلاد التى فيها مقر السلطان ، وتتجمع فيها الدواوين وتقام فيها الحدود ، وتضاف اليها مدن الاقاليم مثل دمشق ،والقيروان وشيراز ٠

٢ ــ القصبات : وهى عواصم الاقاليم ، ومقامها من الامصار مقام الحجاب من الملوك ٠

٣ ــ المدن : وهى ما يلى القصبة فى الاقاليم أو الكور ، ومقامها مقام الجند ٠

٤ ــ القرى : وتلحق المدن ، ومقامها مقام الرجالة من الجند(٣) ٠

أما تعريف المدينة عند الجغرافيين المسلمين : فهى كل مستوطنة

---

(١) ذكر ياقوت فى معجمه (جـ ١ ص ٣٧) أن سبب التسمية يرجع الى أن القحطانيين الذين اتخذوا اليمن مقرا لهم ، حينما ازداد عددهم انطلقوا فى أرض اليمن ليختار كل بنى أب موضعا يعمرونه ، وكانوا اذا ساروا الى ناحية واختارها بعضهم تخلف بها عن سائر القبائل وسماها باسم أبى تلك القبيلة المتخلفة فيها فسموها « مخلافا » ومن امثلتها مخلاف زبيد ، ومخلاف همدان ، ومخلاف نجران ، ومخلاف صنعاء وجمعه مخاليف (انظر المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ٨٨) ٠

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان ٠ المجلد الاول ص ص ٢٦ ــ ٣٨ ٠

(٣) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ٠ ١٩٠٦ (ص ٤٧) ٠

يوجد بها منبر ، اذ يعنى وجود المنبر وجود المسجد الجامع، فيذكر الاصطخرى انه كان بفلسطين على ضيق رقعتها نحو عشرين منبرا وذلك يعنى أن فلسطين ـ على صغرها ـ كانت تضم عشرين مدينة ، وفى النص التالى الذى يتحدث فيه الاصطخرى(٤) عن كورة اصطخر يتضح تصنيفه للمدن ، ثم استخدامه للمنبر لتحديد المدينة فيقول « نواحى كورة اصطخر : ناحية يزد وهى أكبر ناحية فيها ، وبها من المدن كثة وهى القصبة ٠٠ والارخمان ومدينتها الارخمان ، وجارين ليس بها منبر وقوين ليس بها منبر وخورستان وليس بها منبر ، والبودنجان ومدينتها البودنجان وهى قرية الاس ، وصاهك الكبرى ولها منبر ، وصاهك الصغرى ليس بها منبر ٠٠٠ »

٢ ـ الاسلام والتحضر :

على الرغم من أن الاسلام نشأ فى الصحراء ، فان العصر الاسلامى كان فترة ازدهار للمدن سواء منها ما أنشأه المسلمون أو ما جددوه من المدن الرومانية والهلينية والفارسية التى تدنت فبعد أن كانت المنطقة الاسلامية تابعة للمدينة الاوروبية فى العصور الكلاسيكية احتلت مكان الصدارة مع ظهور الاسلام ، حيث كان العصر الاسلامى الاول العصر الذهبى للمدن ٠ وقد أدت الفتوحات الاسلامية الى فتح بلاد شاسعة انشئت فيها الكثير من المدن ، وجدد ما تدهور منها ، فلقد ازدهرت المدن التى كانت قائمة فى بلاد الرافدين ، كما جددت مدن الشام ومصر التى كانت قد تدهورت كما انشئت الكثير من المدن الجديدة فى المناطق الاسلامية المفتوحة فى افريقيا ومن هذه المدن الكبرى بغداد (أكبر مدينة فى العالم خلال القرن التاسع الميلادى)(٥) والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ودمشق ، وحلب ، والقاهرة والقيروان ، وتونس ، والمهدية والجزائر وتلمسان وقرطبة وسرقوسة وسلجماسة وتمبوكتو ٠

ولم يقتصر دور المسلمين على اعادة الحياة الى المدن الرومانية بل كثفوها وأضافوا اليها ووسعوا جبهتها بالمدن الجديدة ، كما خلقوا فيها

---

(٤) مسالك الممالك ١٩٢٧ (ص ١٠٠) ٠

(٥) جمال حمدان : جغرافية المدن ٠ ص ١١١

قيما جديدة باختيار نمط جديد من المواقع المفضلة كما وصلوا بأحجامها الى مستويات ربما لم تصل اليها المدينة من قبل على الاطلاق ومن بعد حتى الفترة الحديثة على أن هذه آخر فترة تتزعم فيها المنطقة حركة المدنية فى العالم فبعدها يتخلف الشرق عن الغرب فى المدنية بالتدريج حتى نصل الى الفترة الحديثة فيصبح التخلف فيها أشد وأوضح(٦) وانه لغريب حقا أن يقوم شعب نشأ فى فيافى الصحراء بانشاء واحياء هذا العدد الكبير من المدن فما الذى دفعه الى ذلك ؟ · يمكن أن نلحظ أن وراء هذه الدفعة المدنية الاسلامية عوامل متعددة منها :

١ ـ العامل الحربى : ويعد هذا العامل من أهم العوامل لارتباطه بانتشار الاسلام فقد تعرض الدين الجديد لهجمات ضارية استهدفت القضاء على هذه الدعوة وأهلها كما أن طبيعة الدين الاسلامى الذى يلقى على المسلمين تبعة الدعوة الى الاسلام ونشره فى الارض ، فكانت الفتوحات الاسلامية التى استهدفت نشر الاسلام ، وكان من ضرورات هذه الفتوحات ان ينشىء المسلمون فى البلاد المفتوحة مراكز عسكرية تكون مقرا لجند المسلمين ، ومن ثم كانت المدن الاسلامية فى البلاد المفتوحة ذات طبيعة حربية كما سنشير ، بل كثيرا ما شيدت كمعسكر للجند كما يظهرمن اسمها (الفسطاط)، القيروان ، وكل منها تعنى الخيمة وقد أمر عمر بن الخطاب قواده أثر معركة القادسية بتخطيط بعض المعسكرات على أطراف العراق مما يلى البادية لينزلها الجند العربى وعياله ، فاختط عتبه بن غزوان فى ربيع سنة ١٦ هـ مدينة البصرة(٧) ·

٢ ـ العامل السياسى : لقد كان هذا العامل وراء ازدهار أكثر من مدينة فكل أسرة حاكمة لها أصولها القبلية التى ترتبط بها تحاول بناء عاصمة جديدة لها تكون رمزا لها ويتجمع بها اشياعها كما كانت تهجر العاصمة القديمة بل كثيرا ماحاولوا تدميرها · فقد نقل على بن أبى طالب عاصمة الخلافة الاسلامية الى الكوفة لكثرة اشياعه فيها(٨) ، ثم كان لنجاح معاوية

---

(٦) نفس المرجع ، ص ١٠٧

(٧) أنور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ونظمه ، دار الفكر ، بيروت (١٩٧٣) · ص٣٤٥

(٨) نفس المرجع · ص ٣٤٦

فى تأسيس الدولة الاموية أن حرمت الكوفة من مكانتها السياسية الممتازة وأخذت دمشق مكانها ، حيث اشياعه فى الشام التى قضى خمسا وعشرين سنة واليا عليها(٩) · كما أقيمت العاصمة المصرية فى الفسطاط ثم نقلت الى العسكر فى عهد العباسيين ثم الى القطائع فى عهد الطولونيين ثم انتهت الى القاهرة فى عهد الفاطميين وكان نقل العاصمة دائما مع تغير الولاه وقد كان لهذا التركيز للاشياع فى المدينة التى تتخذ عاصمة للحاكم الجديد أن نشأت مدن تشبهماعرف فيما بعد باسممدن البلاط فىأوروبا(court cities)(١٠) فلقد تجمع اشياع المعتصم من القواد الاتراك فى سامراء ، كما تجمع اشياع ادريس الثانى الذين قدموا من القيروان ومن ضواحى قرطبة وشغلوا الحيين الاساسيين فى مدينة فاس(١١) وكثيرا ما كانت المدينة تحمل اسم الخليفة : كالمهدية والمستنصرية والمتوكلية ·· وكثير غيرها ·

٣ ـ العامل التجارى : ويعد هذا العامل من أبرز العوامل التى اسهمت فى ازدهار المدينة الاسلامية فالعالم الاسلامى بحكم موقعه المتوسط فى العالم القديم يمثل مرحلة انتقالية بين اقاليم جغرافية مختلفة ، وقد كانت بلاد العرب بمثابة طريق عام ، وملتقى للطرق التجارية التى تربط بين حضارات الشرق والغرب فكانت مكة تقع فى منتصف الطريق بين اليمن والشام ، وترتكز مصالحها على تأمين الطرق التى تمر فيها ثروتها ، فقامت حفظا للسلام بعقد سلسلة من المحالفات بين بدو الصحراء وعشائر المدن · وقد عمـــل الاسلام على توثيق الصلات مع الحضارات القديمة القائمة على امتداد هذا الطريق ، وغالبا ماحل محلها فأحيا عددا ـ كبيرا من المستوطنات القديمة وأنشأ مدنا جديدة اما للتحكم فى طرق التجارة الممتدة من الصين الى اسبانيا أو لتكون بمثابة مراحل على هذه الطرق وقد بلغ مدى شهرة العربى فى التجارة أن أصبحت كلمة عربى فى الافرنجية تعنى تاجرا ·

وكان كل النشاط التجارى مركزا بالضرورة فى المدن موانى الصحراء

---

(٩) على ابراهيم حسن (١٩٧٢) · ص ٢٧٢
(١٠) جمال حمدان · المرجع السابق · ص ١٠٩
(١١) انور الرفاعى · المرجع السابق · ص ٣٦٠

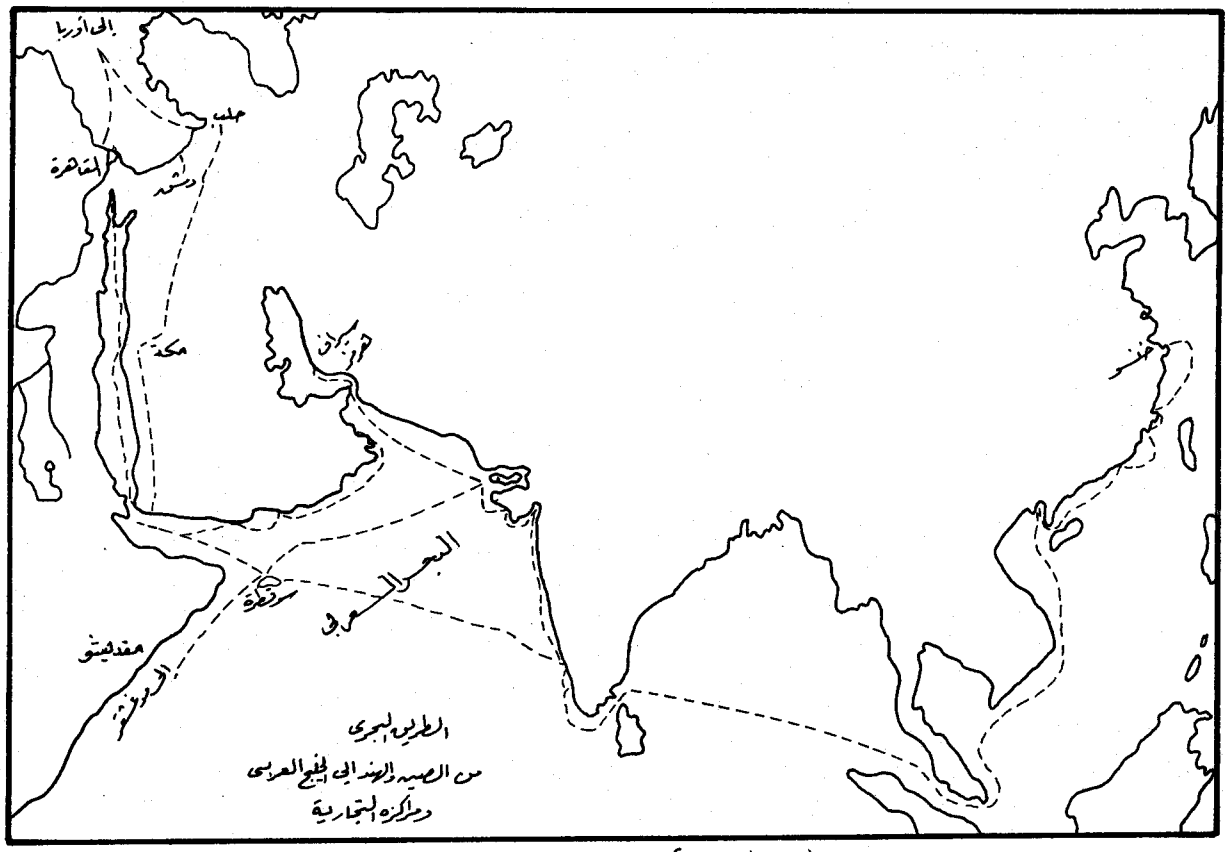
الى أوربا
حلب
القاهرة
دمشق
مكة
خور بركان
البحر العربي
زنجبار
مقديشو
الطريق البحري
من الصين والهند الى الخليج العربي
ومراكزه التجارية

(خريطة رقم ١)

من ناحية وموانى البحر من ناحية أخرى(١٢) ولهذا كـــان ازدهار المدن الاسلامية تلبية لاحتياجات التجارة المتزايدة بتدعيم نقاط التجارة لتكون بمثابة مراحل على الطريق . كما كانت مراحل على طريق الحج كما هـــو الحال فى عيذاب التى ظلت فترة طويلة من العصور الوسطى مركزا لتجمع الحجاج وتجار الشرق(١٣) .

ولقد كان للطريق التجارى البحرى الممتد من الصين الى الهند ثم الى رأس الخليج العربى (الذى توضحه الخريطة رقم ١) أثره فى ازدهار كثير من المدن منها هرمز ، وسيراف ، وقيس والابله ، كما أن فروع هذا الطريق النهرية والبرية كانت ذات أثر على ازدهار مدن كالبصرة وبغداد وديار بكر ودمشق كما أدت فروع هذا الطريق الممتدة جنوبا على ساحل البحر المتوسط الى غزة حتى القاهرة وشمالا بغرب الى حلب ثم الى اسيا الصغرى حيث الطرق القادمة من وسط آسيا الى ازدهار المدن ويكفى أن نعـــرف حجم التجارة فى مدينتى دمشق وحلب لنرى أن التجارة كانت عاملا هاما فى ازدهارهما فلقد كان كل من المدينتين تستقبل سنويا ما يزيد عـــلى ١٥٫٠٠٠ جمل محملة بالسلع الشرقية لتعود محملة بالسلع المحليـــة والغربية(١٤) وكانت دمشق بمثابة مستودع لتجارة وسط آسيا وهى نمط من المدن التى يطلق عليها جغرافيو المدن اسم مدن المستودعات (Entrepots) .

كما كان الطريق البحرى الذى يمتد من الشرق الاقصى الى البحـــر الاحمر وتوضحه الخريطة رقم ٢ لـــه تأثيره علـــى مـــدن كعدن ، وينبع ، وجدة ، والطور والقلزم وحتى ما يتفرع عنه من طرق نهرية أو قنوات جعلت من القاهرة مركزا تجاريا هاما كما ظلت مكة مركزا هاما من مراكز تجـــارة الشرق الواردة بطريق البر من عدن ومن الشام وكان منفذها الى البحر ميناء جدة .

---

(١٢) جمال حمدان (١٩٥٨) ص ١٨

(١٣) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة (١٩٧٣) ص ١٤٣

(١٤) نفس المرجع ص ص (١٤٨ ـ ١٥٠) .

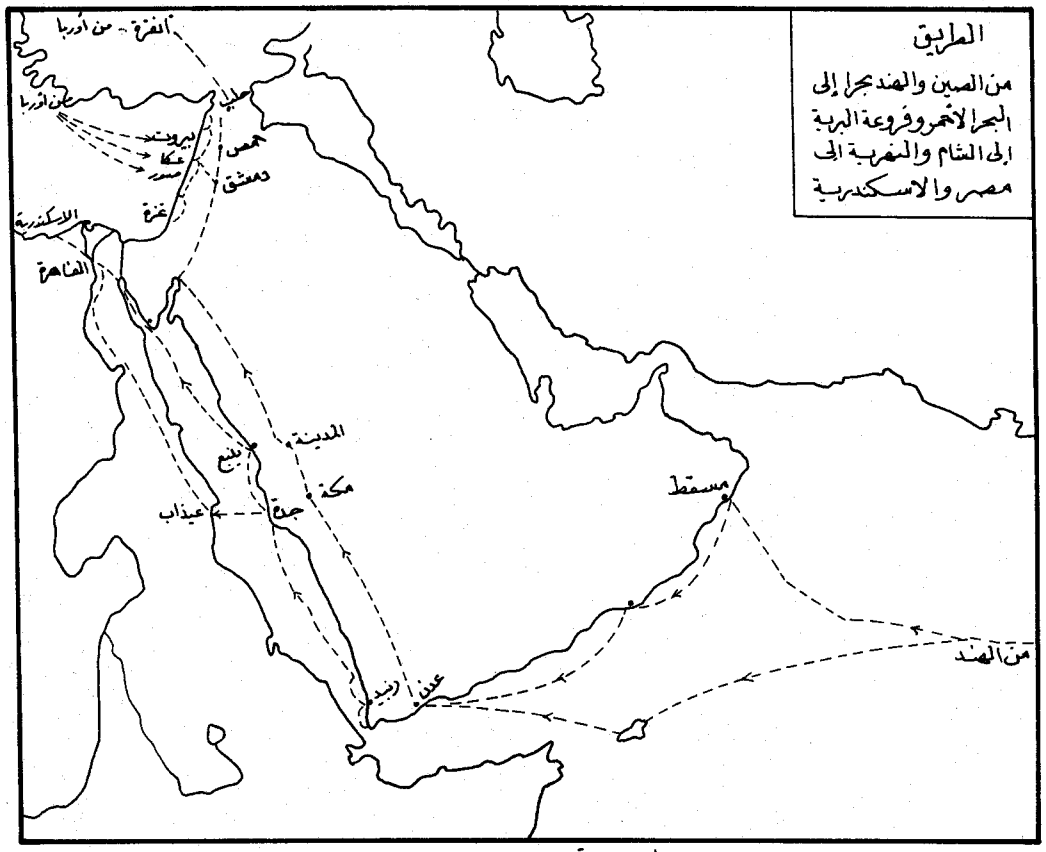
الطريق
من الصين والهند بحرا إلى
البحر الأحمر وفرعة البرية
إلى الشام والمغربة إلى
مصر والاسكندرية
الفرنج - من أوربا
من أوربا
بيروت
عكا
صور
حمص
دمشق
غزة
الاسكندرية
القاهرة
المدينة
ينبع
مكة
جدة
عيذاب
مسقط
من الهند
عدن
زبيد

(خريطة رقم ٢)

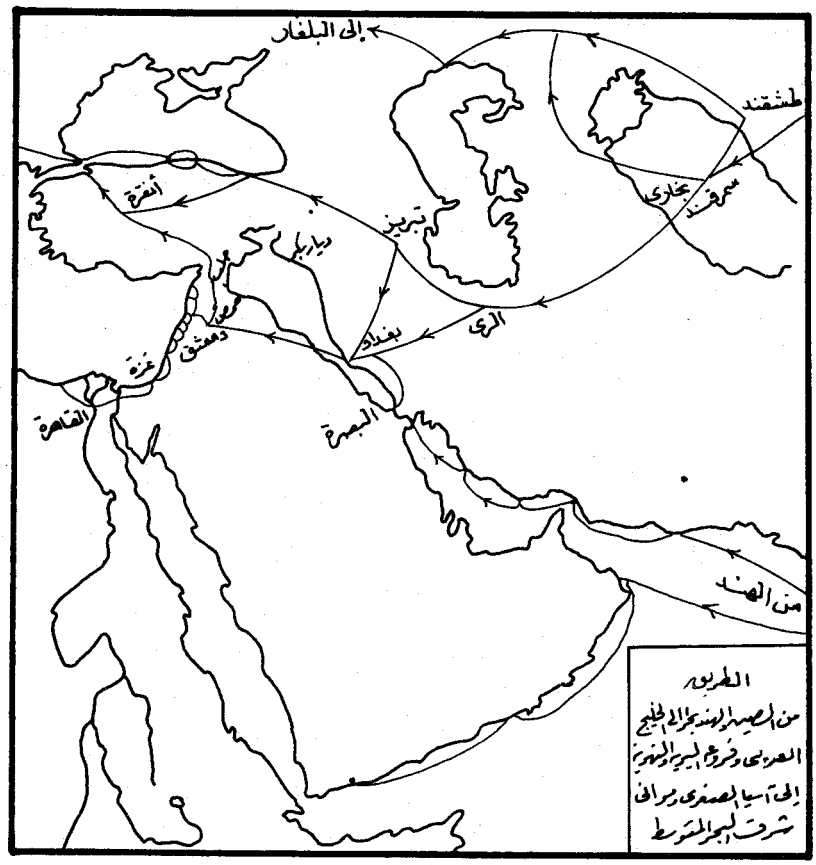
إلى البلغار
طشقند
سمرقند
بخارى
أنقرة
تبريز
ديار بكر
الرى
بغداد
دمشق
غزة
القاهرة
البصرة
من الهند
الطريق
من الصين والهند عبر الخليج
العربى وشرق البحر المتوسط
إلى آسيا الصغرى وبيزنطة
شرق البحر المتوسط

(خريطة رقم ٣)

ولقد كان للطريق البرى الممتد من وسط آسيا ومن الهند عبر جبالها والذى يلتقى مع طريق الصين ويتجه فرع منه الى بحر قزوين ونهر الفلجا وفرع آخر الى البحر الاسود والقسطنطينية وأوروبا كما يخرج منه فرع الى ديار بكر وبغداد (والذى توضحه الخريطة رقم ٣) كان له تأثير على كثير من المدن التى يمر بها ، ومن الطرق البحرية الهامة التى اخترقت العالم الاسلامى وكان لها أثرها فى ازدهار المدن الاسلامية الطريق بين الهند والصين والذى يتصل بالطريق الى شرقى افريقية وقد أدى الى ازدهار مسقط ومقديشو(١٥) ٠

ولقد أدى الموقع المتوسط للعالم الاسلامى الى التنافس بين المدن والموانىء المختلفة فى العالم الاسلامى لاشتراكها فى الاعتماد على التجارة العبورية التى تأثرت بالتغيرات السياسية ويبدو ذلك واضحا فى التنافس بين موانى الخليج العربى من ناحية وموانى البحر الاحمر من ناحية أخرى باعتبارهما شريانا التجارة العبورية حول الجزيرة العربية فقد كان انشاء خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الاحمر عاملا هاما فى ازدهار موانىء البحر الاحمر ، ولكن مع قيام الدولة العباسية وردم الخليج قلت أهمية البحر الاحمر واحتلت موانىء الخليج مركز الصدارة فحلت سيراف والابلة والبصرة محل القلزم وعدن وما بينهما من موانى ثم عادت الاهمية الى البحر الاحمر فى أواخر القرن التاسع الميلادى بسبب الثورات والاضطرابات فى جنوب العراق مما قلل من أهمية الخليج العربى(١٦) ٠

٣ ـ خصائص المدينة الاسلامية :

الموقع

الميل الواضح لتخير المواقع البرية : تختلف شبكة المدن الاسلامية عن سابقتها الرومانية فى الانتقال من مواقع ساحلية بحرية الى مواقع داخلية برية كما كان من أهم مايراعى فى مواقع المدن الاسلامية الا يفصل بينها

---

(١٥) لمزيد من التفصيل انظر نعيم زكى (١٩٧٣) (١٧٧ ـ ١٨٧) ٠
(١٦) جمال حمدان ٠ المرجع السابق ٠ ص ١١٠

وبين دولة الخلافة فاصل مائى ·ففى فترة ولايةعمر بن الخطاب هزمالمسلمون الفرس فى موقعة القادسية سنة ١٥ هـ ، ولم يشأ المسلمون أن يتخذوا من المدائن عاصمة الفرس القديمة مقرا لهم لحكومة المسلمين ، ولكن بنىالمسلمون البصرة سنة ١٦ هـ لتكون مقرا لهم ، وقد فضل موقع البصرة لانه لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة الاسلامية فاصل مائى ، وحتى يتمكن عمر بن الخطاب أن يمد المسلمين فى فارس بالجند اذا ما دعت الحاجة(١٧) · وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا عند بناء الفسطاط لتكون مقرا لعسكر وحكومة المسلمين فى مصر ، فقد انشئت سنة ٢٠ هـ (٦٦٩ م) على ضفة النيل الشرقيـــة بجوار حصن بابليون مع أن موقع منف على الجانب الغربى ظل الموقع الاثير لدى كثير من الحكام المصريين فى مصر الفرعونية وقد حلت الفسطاط محل الاسكندرية التى كانتحاضرة لمصر خلال العصر الرومانى ويحقق موقعالفسطاط عددا من الميزات أولها : عدم وجود الفاصل المائى بينها وبين مقر الخلافة فى شبه الجزيرة العربية ، وثانيها وقوعها فى قلب المعمور المصرى ، وثالثها وقوعها على رأس الدلتا مما سهل اشرافها على الوجهين البحرى والقبلى ·

كما يبدو هذا الاتجاه واضحا فى انتقال الاهمية من انطاكية الىدمشق فى الشام ومن قرطاجة الى القيروان فى تونس ، فقد اختار عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ لمدينة القيروآن موقعا بريا بعيدا عن شاطىء البحر ليكـــون المسلمون فى مأمن من أسطول الروم وغارات الفرنج التى كانت لا تزال تنقض على تونس من صقلية وايطاليا واليونان اذ أدت هذه الغارات الى خراب مدن مثل سوسه وجربا ووقوعها مرات تحت الاحتلال وقد قال أحد أصحاب عقبة : حين كان يفتش عن موضع لانشاءالمدينة الجديدة « نحن أصحاب ابل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر(١٨) » وقد وجد الجندى العربى المسلم بينه وبين الصحراء التى أقيمت فيها المدينة الفة · ولقد نمت هذه المدينة حتى أصبحت أكبر المدن الاسلامية فى أفريقيا واتخذها الفاطميون فى بداية تأسيس دولتهم عاصمة لهم ، ثم انتقلوا منها الى المهدية فالقاهرة·

---

(٧) على ابراهيم حسن · المرجع السابق · ص ٢٣٨

(١٨) انور الرفاعى · المرجع السابق · ص ٣٥٨ ·

ولقد ظلت قيمة الموقع البرى للمدن ، والذى يتميز بعدم وجود فاصل مائى بينه وبين الدولة الام تحكم اختيار مواقع العواصم فى الدول المفتوحة حتى نهاية خلافة عمر بن الخطاب اذ ظلت الدولة الاسلامية حتى نهاية عهده دولة برية تحارب جيوشها برا ، ولم يشتبك المسلمون حتى ذلك الوقت فى موقعة بحرية ، ولم ينشئوا اسطولا بحريا لهم · ولقد تغير الوضع اثناء خلافة عثمان بن عفان حيث بدأت الدولة فى انشاء قوة بحرية كبيرةوما محاولات معاوية للسيطرة على مدينة القسطنطينية منذ سنة ٤٧ هـ حينما ابحر اليها فضالة الانصارى ثم حصار المسلمين لها فى الفترة من (٥٤ـ٦٠ هـ) الا دليل على الاستراتيجية الجديدة للعرب والتى سيظهر أثرها فى مدن شمال أفريقيا والاندلس ففى شمال افريقية بسط الامويون نفوذهم فى ارجاء بلاد المغرب سنة ٩٠ هـ واتخذ طارق بن زياد طنجة وهى قصبة تلك البلاد مقرا لحكمه ، كما دعم مركزهم العسكرى فى سبته وكلا المدينتين تطل على ساحل البحر المتوسط(١٩) ·

ولقد انشأ عبيدالله بن المهدى مدينة جديدة فى تونسذات موقع ساحلى هى مدينة المهدية لتكون عاصمة للفاطميين ولقد نمت هذه المدينة وأصبحت مرفأ هاما بين الشام ومصر من جهة ، وصقلية والمغرب والاندلس من جهة أخرى وبنىالمهدىفيها دارا للصناعة تتسعلاكثر من مائتىمركب(٢٠)·

واضح اذن تغير قيمة مواقع المدن فبينما كانت المواقع البرية للمدن هى المرغوبة حتى عهد عثمان بن عفان نجد أنها منذ ذلك العهد أصبح هناك أيضا مواقع بحرية ذات قيمة · ومع ذلك ينبغى أن نشير الى أن المدينة الاسلامية لم تكن فى كل الاوقات بديلا لمدينة قديمة تعرض عن الموقع القديم دون وعى ، ولكنها ورثت مواقع كثير من المدن القديمة وان كانت قد غيرت مواضعها ، فلقد ورثت مدينة بغداد موقع بابل الى حد ما وان لم ترث موضعها(٢١) كما ورثت الفسطاط والقاهرة موقع أون وهليوبوليس وبابليون وان كانت قد تجاوزت موضعها ·

---

(١٩) على ابراهيم حسن · المرجع السابق · ص ٢٤٧ ·
(٢٠) نفس المرجع · ص ٣١٠ ·
(٢١) جمال حمدان : المرجع السابق · ص ١١٠ ·

٢ ـ الموضـــع :

تخير المسلمون مواضع مدنهم كى تحقق الدافع الى انشاء هذه المدن ولهذا كان العامل الحربى أكثر العوامل تأثيرا على مواضع المدن ، فقد راعى عمرو بن العاص فى اختياره موضع الفسطاط أن يجعلها فى مأمن من هجمات العدو اذ كان المقطم يحدها من جهة الشرق ويوفر لها الحماية من هذا الجانب كما يحدها النيل من جهة الغرب كما زاد من القيمة الاستراتيجية للموضع وجود ، جزيرة الروضة الحالية فالى هذه الجزيرة يمكن الالتجاء وقت الخطر ومن ثم يمكن قطع الطريق على الاعداء القادمين عن طريق النهر · ولم يخف على المسلمين حين اختاروا المكان وفرة احجار البناء فى المقطم ، وارتفاع الموضع الذى بنيت عليه فوق مستوى فيضان النيل ، مما يوفر الحماية من اخطار الفيضان ويجعل تربتها جافة صالحة لدفن الموتى · كما أن وقوع المدينة على مقربة من المزروع من الارض مما يسهل وصول المؤن والاقوات اليها وتحقق كل هذه المزايا لذلك الموضع قيمته الحربية ·

ويظهر اهتمام المسلمين بتخير المواضع الملائمة عند انشائهم للمدن من اكتشافهم لعدم صلاحية موضع البصرة كمدينة تتجمع فيها جنود المسلمين وتدير شئون الحكم فى فارس وذلك بسبب كثرة ما يحيط بها من مستنقعات مما جعل العرب ينقلون مقر حكومتهم فى فارس الى الكوفة بعد سنة واحدة من تأسيس البصرة بل اتخذ على بن أبى طالب الكوفة مقرا للخلافة الاسلامية بدلا من المدينة المنورة أثناء خلافته وذلك لتمتع الاخيرة بموضع جيد فضلا عن قيمة موقعها المتمثل فى عدم وجود الفاصل المائى بينها وبين مقر الخلافة الاسلامية فى المدينة ، هذا الى جانب توسطها الدولة الاسلامية ·

وقد بلغ من اهتمام المسلمين بمواضع مدنهم أن الخليفة العباسى المنصور حينما شرع فى بناء مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ اهتم أولا بالبحث عن موضع ملائم لانشاء هذه العاصمة الجديدة فبعث رجالا يثق بهم لاختيار مكان صالح لذلك ، فدلوه على موضع قريب من نارما(٢٢) فى جنوبى الموصل وفى هذا

---

(٢٢) موقع بين الموصل وتكريت الى الشرق من نهر دجلة (معجم البلدان لياقوت الحموى مجـ ١ · ص ٣٢٠) ·

الموضع أقام المنصور يوما وليلة فى فصل الصيف لتكوين رأى نهائى عنه فأعجب به(٢٣) · حقيقة أنه لم يتخذ هذا الموضع لبناء المدينة ، ولكن ذلك يوضح مدى اهتمام المسلمين باختيار المواضع الملائمة من الجوانب المختلفة ·

بقى أن نشير الى أن كثيرا من المواضع فى الدولة الاسلامية كان لها قداستها مما أدى الى اختيارها كى تقوم فيها مدن ذات قداسة تؤدى الوظيفة الدينية ومن أمثلتها مكة المكرمة التى قامت فى موضع بواد غير ذى زرع ويرجع ازدهار هذه المدينة الى قيمة الموضع · كما كان لقداسة بعض المواضع ولاهميتها التاريخية دورا بارزا فى النمو العمرانى لكثير من المدن التى أصبحت تؤدى وظيفة دينية ومن هذه المدن النجف وكربلاء فى العراق وطنطا فى مصر كما قامت بعضها فى مواضع حصينة ينطلقون منها للغزو والجهاد مثل زوايا السنوسية فى الجغبوب وسيوه والكفرة ومثل الرباط فى المغرب التى كان يرابط فيها الشيوخ المجاهدون (المرابطون) كما قامت مدينة تازة فى وادى نهر سيبوع عند ممر جبلى ضيق لا يتجاوز اتساعه الميل وهى منطقة حصينة أيضا ·

٣ ـ حجم المدينة :

لا تتوافر احصاءات دقيقة عن عدد سكان المدن أو مساحتها أو عدد ما بها من مرافق ولكن ما ورد من احصاءات فى كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين أرقام جزافية لا تخلو من المبالغة ، ولكن ما ذكر من أرقام يعبر عن الانطباعات التى تتركها أحجام المدن وما بها من مبانى ومرافق ، فى نفس الرحالة والكاتب عند زيارة هذه المدن · ولو أنه بالرغم من عدم الدقة فى تلك الارقام الا أننا يمكن الاسترشاد بها لمعرفة أحجام المدن ومدى ازدهارها·

وكثيرا ما وصف حجم المدينة دون الاشارة الى أية احصاءات فنجد الاصطخرى مثلا عند وصفه لبعض المدن المغربية يقول « فأما برقة فانها مدينة وسطة ليست بكبيرة ·· وأما المهدية فانها مدينة صغيرة استحدثها عبدالله··

---

(٢٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ـ جـ ٩ ص ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ·

وتونس مدينة كبيرة خصبة واسعة المياه والزروع ... وطبرقة مدينة صغيرة وبيه وبيها عقارب قاتلة»(٢٤) .

كما نرى المقدسى عند وصفه لمدن العراق يقول « الكوفة قصبة جليلة خفيفة حسنة البناء جليلة الاسواق كثيرة الخيرات ... البصرة قصبة سرية أحدثها المسلمون أيام عمر ... واسط قصبة عظيمة ذات جانبيين وجامعين وجسر بينهما كثيرة الخير .. وحلوان قصبة صغيرة سهلية جبلية يحيط بها بساتين وأعناب وتين قريبة من الجبال »(٢٥) .

ويظهر من الاحصاءات التى وردت فى كتابات جغرافى القرنين الثالث والرابع والتى اهتموا فيها بذكر عدد المرافق دون عدد السكان أن المدينة الاسلامية تميزت بالضخامة اذا قورنت بمدن العالم فى تلك الفترة . فقد قدر الخطيب البغدادى عدد سكان بغداد فى القرن الثالث اعتمادا على عدد الحمامات والتى قيل أنها ستون ألف حمام ، فقد قدر أن كل حمام يخصه خمسة مساكن وكل مسكن يسكنه خمسة أشخاص فى المتوسط وذلك يعنى أن عدد سكان بغداد بلغ مليون ونصف مليون نسمة(٢٦) . ولو صح هذا لكانت بغداد « عاصمة العالم » فى حينها ، بل لكانت مدينة سبقت عصرها لان التاريخ لم يسجل مدينة مليونية قبل الفترة الحديثة(٢٧) .

كما ذكر آدم متز نقلا عن ابى عذارى المراكشى أن قرطبة فى سنة٣٥٠هـ كان بها مائة وثلاثة عشر ألف دار وأن بها ثلاثة آلاف مسجد . واذا ما أخذنا بما قدره الخطيب البغدادى بشأن بغداد وهو أن كل مسكن يضم خمسة أشخاص فيكون عدد سكان قرطبة فى القرن الرابع يزيد على نصف مليون نسمة(٢٨ .

---

(٢٤) الاصطخرى : مسالك الممالك . ص ٣٨ .

(٢٥) المقدسى : المرجع السابق ص ص (١١٦ ـ ١٢٣) .

(٢٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى . الترجمة العربية . محمد عبد الهادى أبو ريدة . ص ٢٧٢ .

(٢٧) جمال حمدان : المرجع السابق . ص ١١٢ .

(٢٨) آدم متز : المرجع السابق . ص ٢٧٢ .

أما مدينة البصرة ، وهى أول مدينة بنيت فى الاسلام فيقال ان عدد سكانها بعد نصف قرن من انشائها قد بلغ ما يقرب من ثلاثمائة ألف نسمة ، وكانت حاضرة العالم الاسلامى التجارية خلال تلك الفترة(٢٩) ٠

والقاهرة التى ظلت حتى أواخر عهد الدولة الفاطمية لا يزيد عدد سكانها على مائة ألف نسمة ، قد ازداد حجمها فى عهد الدولة الايوبية فوصل عدد سكانها الى ١٥٠ ألف نسمة ولم يحل القرن الثالث عشرالميلادى حتى كانت القاهرة قد وصل عدد سكانها الى نصف مليون نسمة(٣٠) ٠

ومدينة فاس التى أسست فى سنة ٨٠٦ م لم يمض ثلاثة قرون حتى أصبح عدد سكانها نحو أربعمائة ألف نسمة(٣١)) ٠

وفى نفس الفترة وصل الحجم السكانى لمدينة دمشق ما يتراوح بين ٣٠٠ر٠٠٠ ـ ٤٠٠ر٠٠٠ ٠ ومن الامثلة المتقدمة لاحجام المدن الاسلامية سواء الجديد منها أو ما جدد فى الاسلام يظهر أن هناك عددا كبيرا من المدن الاسلامية جاوز بعضها المليون نسمة ووصل عدد منها الى النصف مليون أو يزيد ٠ ويدل ذلك على ضخامة المدينة الاسلامية وخاصة اذا قارناها بمدينة باريس فى نفس الفترة اذ لم يصل عدد سكانها الى ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة الا فى القرن الرابع عشر الميلادى(٣٢) ٠ واذا قورنت بمدن ايطاليا التى بلغ عدد سكان أكبر مدنها فى بداية القرن الحالى(١٩٠١) وهى مدينة نابلى نحو ستمائة ألف نسمة ، ولم يكن هناك سوى مدينتين فقط يزيد عدد سكانهما فى تلك السنة على نصف مليون نسمة وهما نابلى وميلانو(٣٣) ٠

---

(٢٩) انور الرفاعى : المرجع السابق ٠ ص ٣٤٥ ٠

(٣٠) عبد الفتاح وهيبه : (١٩٧٣) ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ ٠

(٣١) Fitzgerald, W. (1955) P. 410 .

(٣٢) محمد ٠ ا٠ سناسير (١٩٧٨) ص ٤ ٠

(٣٣) محمد السيد غلاب ، محمد صبحى عبد الحكيم : (١٩٧٤) ص ٥٧٧ ٠

٤ ـ عناصر المدينة الاسلامية :

(أ) المباني والشوارع

تطورت المباني في المدينة الاسلامية مع مراحل التطور التي شهدتها الدولة الاسلامية ففي أول الامر كان المجتمع الاسلامي الجديد يمنع المغالاة والاسراف في المباني والتطاول فيها ، فعمر بن الخطاب ينصح بعدم المطاولة في البناء في الامصار(٣٤) · وكانت مساكن الخلفاء الراشدين مجردحجرات قليلة لا تختلف عن سائر مساكن المسلمين الا بما فيها من دواوين · ولقد كانت مباني المدينة الاسلامية في الاقطار المفتوحة تشيد من الحجر أو الاجر ، ولو أن بعض المدن كانت عند انشائها متواضعة في مواد بنائها · فلقد شيدت البصرة في أول الامر من الغاب والخيام ، وكانت اشبه بالقرية منها بالمدينة ، ثم بنيت باللبن حينما وجد أن الغاب لا يقاوم النيران ، ثم بنيت بالحجر حينما ازدادت ثروتهم(٣٥) · أما في البادية فكانت المساكن من الوبر ، ولذلك سمي البدو بأهل الوبر ، وسمي الحضر « الحجر » · وهو تعبيرء ن مادة البناء المستخدمة في كل منهما ·

وفي عهد بني أمية ظهر ميل الولاة لاقامة المباني الشامخة ، ففي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ٩٦هـ) (٧٠٥ـ٧١١٥ م) بنيت الكثير من المباني الفخمة مما كان لها أثرها على تطور المدينة الاسلامية ، ولقد ازداد اهتمام الولاة بانشاء المباني الضخمة في تلك المدن التي انشئت لتكون مقرا لهم ، فظهرت العمائر الضخمة ، ويذكر الرحالة ناصر خسرو أن احدى العمائر في القاهرة تسع خمسين وثلاثمائة ساكن ، وانه رأى بيوتا مكونة من أربعة عشر طابقا(٣٦) · وغالبية مساكن القاهرة تتراوح بين خمسة وستة طوابق ·

وكان ارتفاع المباني وتعدد الطوابق في مدينة القاهرة يعطي انطباعا

---

(٣٤) عبد المنعم ماجد : (١٩٧٣) · ص ٩٣ ·

(٣٥) على ابراهيم حسن : المرجع السابق · ص ٢٣٨ ·

(٣٦) ناصر خسرور : سفرنامه · الترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب · (١٩٤٥) · ص ٤٨ ·

بأن مبانى المدينة متقاربة وشوارعها ضيقة ومظلمة • ويروى ناصر خسرو أن شوارع القاهرة كانت توقد فيها القناديل لان ضوء الشمس لا يصل الى أرضها • وتتكرر هذه الصورة فى معظم المدن الاسلامية التى تحتفظ بطابعها الاسلامى فى الوقت الحاضر • ففى فاس التى تبدو بشوارعها الملتوية التى تصطف على جوانبها دكاكين الحرفيين وتظلل كثير من الشوارع بالبوص المجدول(٣٧) • ويستدل من قدرتهم على تسقيف الشوارع بالبوص على أنها كانت ضيقة ، ويزيد ذلك السقف من ظلمتها • ولا يخفى علينا مـــا ينبعث من هذه الشوارع من روائع تختلف باختلاف السلع التى تباع فى محلاتها المتراصة على الجانبين • فأحياء القاهرة القديمة تتميز بروائحمميزة، ففى شوارع الغورية الضيقة تنبعث روائح التوابل التى تملأ جو المكان • كما أننا نجد بعض المدن الاسلامية التى حاكت فى تخطيطها التخطيط الاغريقى والرومانى ذات شوارع متسعة فمدينة سامراء يبلغ اتساع الشارع الاعظم فيها ما يزيد على مائتى ذراع(٣٨) •

(ب) الاسوار والقلاع :

لقد أثرت العوامل المختلفة التى كانت وراء قيام المدن الاسلامية فى عناصر المينة الاسلامية وتخطيطها وقد جعل العامل الحربى السور من أهم عناصر المدينة • وقد أشرنا من قبل الى أن نشر الاسلام اقتضى قيام نقط ارتكاز يتجمع فيها الجند وتنزل فيها الجاليات العربية الفاتحة ولكى يتحقق هذا الهدف لزم أن تكون المدينة الاسلامية محصنة يسهل الدفاع عنها والانطلاق منها • فأحيطت بالاسوار المزودة بالبوابات الضخمة ، وقد تصل الرغبة فى زيادة تحصنها الى حد انشاء أكثر من سور فقد تحاط بسورينأو ثلاثة(٣٩)، وتزود الاسوار بالابراج والشرفات والقلاع ، كما كانت تحفر حولها الخنادق فى كثير من الاحوال • ولقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك حينما حصن المدينة لحمايتها من مشركى قريش • كما تدفع الرغبة فى

---

(٣٧) يوسف ابيش : الحفاظ على مدينة فاس • (١٩٧٨) ص ١١ •
(٣٨) آدم متز : المرجع السابق ص ٢٧٤ ، انور الرفاعى : المرجع السابق ص ٣٥٢ •
(٣٩) ناصر خسرو : المرجع السابق • ص ٤ ، ص ٨ •

زيادة منعه المدن الى ملء هذه الخنادق بماء البحر فى وقت الضرورة(٤٠) ٠ ومن المدن الاسلامية المسورة وهى كثيرة الفسطاط ، العسكر ، والقطائع ، ثم القاهرة ، وبغداد ، والقيروان ، والمهدية والرقة ، والرصافة ، وسامراء ، وفاس ، والرباط ٠٠٠ وكثير غيرها ٠ وكما هو الحال فى مدن فارس ، فقد كانت المدينة الفارسية تتألف من قلعة (قهندز) تشرف على المدينة ويحيط بها سور ٠ ويظهر ذلك من وصف الاصطخرى مدن رفارس اذ يذكر أن فيها ما يزيد على خمسة آلاف قلعة ، وبلغ من كثرة المدن المحصنة أنه لا يستطيع حصرها الا بالرجوع الى الدواوين ٠ وفى ذلك يقول « وأما القلاع فانه فيما بلغنى أن لفارس زيادة على خمسة آلاف قلعة مفردة ، فى الجبال ، وبقرب المدن وفى المدن ولا يتهيأ تقصيها الا من الدواوين ، وكذلك ماذكرناه من المدن المحصنة فانى لا أقدر على تقصيها وانما أذكر جوامع ما أعرفه من ذلك » وفى وصفه لمدينة اصطخر وبعض المدن المجاورة يقول « اصطخر بها حصن حواليه ربض ، ومدينة كثة بها حصن وربض ٠٠٠ والسر مق بها حصن وربض وقهندز »(٤١) ٠

ومن أمثلة المدن الاسلامية المحصنة مدينة بغداد التى بلغ قطرها عند انشائها ثلاثة آلاف متر كان يحيط بها سوران ، أما الداخلى منهما فيتكون من حائطين سميكين وأما الخارجى فيبلغ ارتفاعه ٥ر١٧ مترا ، وسمكه عند قاعدته ٥ر١١ مترا ٠ وحوله من الخارج خندق عميق (٤٢) ٠ وقد قسمت المدينة الى أربعة أقسام متساوية ، ولها أربعة أبواب هى :

باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام ٠

كذلك كانت مدينة الفسطاط محاطة بسور ، كما احيطت العسكر والقطائع ثم القاهرة بالاسوار ، وربما اعتبر خليج أمير المؤمنين (خليج القاهرة) الذى أحاط بالمدينة من جهة الغرب يمثل الخندق الذى يحيط بالسور ، بل ذهب البعض الى أن تسميتها فسطاطا مأخوذة عن الكلمة

---

(٤٠) ابن شاهين : زبده كشف الممالك (١٨٩٤) ٠ ص ٣٩ ٠
(٤١) الاصطخرى ٠ المرجع السابق ٠ ص ١١٦ ٠
(٤٢) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ٠ ص ، ص ٩٣ ـ ٩٦ ٠

اللاتينية فساتون Fassaton ، ومعناها ماهو محاط بخندق(٤٣) ٠

بل زاد من رغبتهم فى تحصين المدينة أن كان لشوارع القاهرة ودروبها بوابات تغلق ليلا ولها حراس ٠ ولا تسمح السلطات الحاكمة للاجانب بدخول المدينة الا بعد الحصول على اذن خاص يذكرون فيه هويتهم وسبب حضورهم(٤٤) ٠

وبلغ من أهمية السور أن كان أول ما بنى ادريس الثانى عندما انشأ مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ السور الحجرى ٠ حقيقة لم يكن العامل الحربى وراء انشاء هذا السور ، ولكنه ارادها أيضا مدينة محصنة تضم أشياعه ومريديه خاصة وانه جاء هاربا بعد هزيمته فى موقعة «فخ » أمام الخليفة الهادى حيث أثبت والده قرابته من الرسول ، وحقه فى الخلافة فبايعه البربر والتفوا حوله(٤٥) وانشاء السور هنا ربما كان بتأثير العامل النفسى، ولقد حصنت المدينة بعد ذلك فى القرن السابع الهجرى سنة ٦٧٥ هـ ٠ وبناء القلاع والحصون ٠

ومع أن السور كان أهم عناصر المدينة الاسلامية فى فترات الفتوح الاسلامية ، ولكنه بعد أن ثبتت الدولة الاسلامية أركانها وحلت فترات الاستقرار السياسى أرجاء الدولة الاسلامية ، لم يعد السور من بين العناصر الرئيسية للمدينة ٠ ففى الوقت الذى شرع المعتصم فى تخطيط حاضرته (سر من رأى) سامراء سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦م) اهتم بسائر عناصر المدينة ولكنه لم يؤكد على بناء الاسوار بسبب استقرار الدولة وثبوت أركانها(٤٦)٠

ثم ازداد اهتمام المسلمين ببناء الاسوار والابنية الحربية حينما أحدقت الاخطار بالعالم الاسلامى خلال القرنين التاسع والعاشر أثناء حروبهم مع

---

(٤٣) انور الرفاعى : المرجع السابق ٠ ص ٣٥٦ ٠
(٤٤) نعيم زكى : المرجع السابق ٠ ص ١٢٨ ٠ حاشية رقم ١٩ ٠
(٤٥) على ابراهيم حسن : المرجع السابق ٠ ص ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ ٠
(٤٦) انور الرفاعى : المرجع السابق ٣٥٢ ٠

البيزنطيين ، ثم خلال فترات الحملات الصليبية ، ثم أثناء موجات المغـول والتتار • ولقد اقتبس الصليبيون الكثير من أساليب التحصن كالمشربيات وهى البروز المغطى فى سور القلعة لرمى المهاجمين •وكان أكثر سلاطين المسلمين اهتماما ببناء الاسوار والقلاع سلاطين المماليك خلال الفترة (ق ١٣ـ ق ١٦) • ومن المدن التى حصنت فى هذه الفترة بالخنادق والاسوار والقلاع مدينة حلب التى جددت أسوارها خلال القرون(١٤ ، ١٥ ، ١٦) • كما حصن صلاح الدين القاهرة بقلعة الجبل ، كما حصن المرابطون مدينة مراكش ببناء قلعة سور الحجر سنة ١٠٦٢ م • كما الحقت بالمدينة الاسلامية الرباطات وهى نوع من المبانى العسكرية والدينية ، ولقد انشئت بكثرة فى شمالى افريقيا لصد محاولات الغزو البحرى الاوربى ، وأكثر الرباطات كان فى تونس ومنها رباط مدينة سوسة الذى انشأه الاغالبة سنة٨٢١م ويشتغل المرابطون بحراسة الثغور من منارة الرباط حيث يراقبون قدوم اسطول العدو • ويعمل بقية سكان الرباط فى الاعمال اليومية حيث يؤمنون الطعام والشراب والسلاح للمقاتلين(٤٧) •

جـ ـ المسجـــد :

كانت المدينة الاسلامية فى نشأتها متأثرة بالطابع الدينى لمدينة النبى صلى الله عليه وسلم • ويعد المسجد أهم عناصر المدينة بل هو النواة التى تقوم المدينة من حوله ، ويرجع ذلك الى الدور الضخم الذى يضطلع بـــه المسجد ، فهو مكان العبادة ، ومعروف ان شعائر الاسلام تقام فى جماعة • ولقد كان المسجد فى أول الامر مكانا تناقش فيه كل أمور المسلمين ، فهو ندوة للنقاش السياسى ومجلس للقضاء ، كما قام أيضا بدور المدرسة ، ولهذا أصبح المسجد يعرف بالجامع • وأول مدينة كان المسجد يمثل نواتها هى المدينة المنورة حيث كان المسلمون قبل الهجرة يصلون فى شعاب مكة ، أو فى جانب للكعبة(٤٨) • ولهذا لم يكن فى أول الامر فى المدينة الاسلامية سوى مسجد كبير واحد تقام فيه الجماعة ويسمى بالمسجد الجامع ، فلم يكن فى المدينة أو البصرة أو الكوفة أو بغداد أو الفسطاط عند نشأتها غير

---

(٤٧) نفس المرجع : ص ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٢ •

(٤٨) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق • ص ، ص (٩٣ ـ ٩٦) •

مسجد جامع واحد ٠

ولقد كانَ بمدينة بغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ ما يقرب من سبعة وعشرين ألف مسجد ولكن صلاة الجمعة كانت لا تقام الا فى المسجد الجامع فى كل من جانبى بغداد ، وكان بالفسطاط مسجدان للجمعة ٠ أما البصرة فكان بها فى القرن الثالث للهجرة سبعة آلاف مسجد وكان بها ثلاثة جوامع ٠

ومنذ القرن الرابع الهجرى بدأ أولو الامر فى جعل عدد المساجد متمشيا مع حاجات الناس ومطالبهم(٤٨) ٠ وأيا كان مدى الثقة فى هذه الارقام الخاصة باعداد المساجد الا أنها توضح أن المسجد كان أحد العناصرالرئيسية بل أهم العناصر فى المدينة الاسلامية ٠

واذا تتبعنا نشأة المدن الاسلامية لوجدناها جميعا نشأت من حول المسجد الجامع ٠ فمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام يتوسطها المسجد الذى يعدا أهم معالم المدينة ونواتها ٠ وكذلك الحرم المكى يتوسط مكة وهو نواتها وقلبها النابض ، بل قلب العالم الاسلامى كله ٠ وعندما أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط أقام فى وسطها المسجد الجامع ، وهو ما عرف باسم جامع عمرو أقدم جوامع مصر الاسلامية ٠ فقد بدأ انشاءالمدينة سنة ٢٠ هـ ، وانتهى من بناء المسجد سنة ٢١ هـ ، ويدل ذلك على أنالمسجد من أقدم المنشآت فى المدينة ، وبلغ من اهتمام عقبة بن نافع بالمسجد الجامع عند انشائه لمدينة القيروان الذى فاق اهتمامه به كل أحياء المدينة حتى قيل « لم يبن عقبة مدينة لها جامع بل بنى جامعا له مدينة » ، وقصد عقبة أن يكون الجامع قيروانا تؤدى فيه كثير من الوظائف(٥٠) ٠ وكذلك الحال فى مدينة البصرة أول مدينة بنيت فى العصر الاسلامى سنة ١٦ هـ ٠ كان أول بناء اقامة فيها عتبة بن غزوان هو المسجد الجامع ثم دار الامارة(٥١) ٠

وما يقال عن الفسطاط والبصرة ينسحب على كل المدن الاسلامية بدون

---

(٤٩) آدم متز : المرجع السابق ٠ ص ، ص (٢٦٩ ـ ٢٧٠) ٠
(٥٠) انور الرفاعى : المرجع السابق ٠ ص ٣٥٨ ٠
(٥١) نفس المرجع : ص ٣٤٥ ٠

استثناء حتى المدن التى كانت فى البلاد التى فتحها المسلمون ، حينما ولى المسلمون أمرها كان أول المعالم التى حرص المسلمون على وجودها المسجد. فمدينة قرطبة التى كانت عاصمة للاندلس فى زمن القوط وهى من أقدم مدن شبه جزيرة ابيريا ان لم تكن أقدمها حينما اتخذها موسى بن نصير قاعدة له ثم اتخذها عبد الرحمن الداخل مقرا للدولة الاموية الاندلسية . وقد أقام فيها عبدالرحمن الداخل الكثير من المساجد التى بلغ عددها ما يقرب من ثلاثةآلاف . ويعد المسجد الجامع الذى بناه فيها من النماذج البديعة لما وصل اليه الفن العربي . وقد حول جامع قرطبة فيما بعد الى كنيسة سميت « الجامع الكتدرائية » (لاميثكيتا كاتيدرال) (٢٥) وهى أغرب تسمية لكنيسة فى العالم .

د ـ الخانقاة :

كان فى عهد الدولة الاسلامية العديد من الخنقاوات ، وقد وجدت فى مدن ايران ، وفى بيت المقس ، وفى الفسطاط . ويذكر المقدسى انه كان بالمغرب سبعمائة خانقاة(٥٣) . وكان للصوفية فى خنقاواتهم مجالس ذكر. وقد سبق انشاء الخنقاوات قيام المتصوفة على الذكر فى بيوت صـــــغيرة مخصصة لذلك تقام فى ظاهر المدن . وقد كانت توجد أيضا فى الرباطات التى استخدمت فى أغراض حربية(٥٤) .

هـ ـ دار الامارة (قصر الامارة) :

من المعالم الهامة التى صاحبت انشاء المدن الاسلامية انشاء دارللامارة، وكانت تواجه المسجد . ويحيط بها وبالمسجد مساكن الجند فى كثير من الاحيان . وقد عرفت هذه المساكن باسم القطائع أو الحارات أو الخطط . وكان الهدف من احاطة مساكن الجند لدار الامارة تأمين حكام المسلمينوتحقيق الاستقرار لحكمهم . ولقد تدرجت دار الامارة من البساطة فى أول الامر الى الفخامة خصوصا حينما تعددت دول الاسلام وتنافس الحكام فىالبناء ،

---

(٥٢) انور الرفاعى : المرجع السابق . ص ٣٦١ .
(٥٣) المقدسى : المرجع السابق . ص ٣٨ .
(٥٤) نفس المرجع . ص ٢٠٢ .

وأصبح يعرف من دون المباني الاخرى باسماء تدل عليه وتميزه • ففي قاهرة الفاطميين عرفت قصورهم بالقصور الزاهرة ، وأشهرها القصر الكبيرالشرقي، والقصر الصغير الغربي ، وقصر الذهب ، وقصر الشجرة ، وقصر الحريم ، وفي بغداد العباسيين عرف من قصورها : قصر الذهب ، المسمى بالقبة الخضراء ، وقصر الخلد • وفي قرطبة الاموية قصر الزهراء وفي غرناطة قصر الحمراء(٥٥) •

وعند بناء سعد بن أبي وقاص لمدينة الكوفة بنى منزله مواجها للمسجد واتخذ فيه بيت المال وتحول الى قصر الامارة • وقد شيد هذا القصر من الاجر المحكم التشكيل والجص(٥٦)• كما أن بغداد كان يتوسطها الجامع وقصر الخليفة ثم دار حرسه ومنازل أولاده ومن يقومون على خدمتهم(٥٧) • وتتكرر هذه الصورة في كل من القيروان ودمشق والقاهرة المعزية ، ثم في قرطبة حيث كان الجامع يطل على نهر الوادى الكبير ويواجهه قصر الامارة الذى تحول الى القصر الاسقفي بعد تحول المسجد الى كنيسة •

أما مدينة سامراء التى انشئت كمعسكر لقواد المعتصم الاتراك فلم يكن لها من خصائص المدينة الاسلامية الا القليل • ولو أنها في عهد المتوكل بنى فيها المسجد الجامع الذى بلغت مساحة صحنه الداخلى ٤٤ ألف مترمربع ، كما بنى فيها دار الخلافة ودار العامة ، واتخذت طابع المدينة الاسلامية • كما بنى فيها العديد من القصور منها قصر الجوسق • كما ضمت بعض المنشآت منها حلبات ثلاث للسباق وحديقة للحيوان •

وقد ألحقت بالقصور الحدائق التىتفنن المسلمون في زراعتها والتى أصبحت نمطا معروفا من الحدائق سميت بالحديقة الاسلامية ، والتى كانت تتميز بزروعها ، والمعتقد أن الحديقة الاسلامية تأثرت بحدائق الشعوب المفتوحة من المصريين والفرس ومن الحدائق التى بقيت الى الان جنة العريف

---

(٥٥) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق • ص ١٠١ •
(٥٦) انور الرفاعى : المرجع السابق • ص٣٥٠ •
(٥٧) على ابراهيم حسن : المرجع السابق • ص ٣٠٧ •

الملحقة بقصر الحمراء بالاندلس والتى نسقت على شكل مدرجات(٥٨) ٠

و ـ الســـوق :

ولوقوع المسجد فى وسط المدينة غالبا احيطت به الاسواق التىتحتاج اليها المدينة ومن المعروف أن المسجد لعب دورا هاما فى ايواء المسافرين الى جانب الفنادق ومن المصطلحات التى نطالعها فيما كتب عن أسواق المدن الاسلامية الفندق والخانة والرباع ، والوكالة ، والقيسارية ، وكانتالفنادق تعنى مكان التجار الاجانب وتتكون من غرف متعددة وصحن مكشوف ومخازن وهذه كانت واسعة الانتشار فى المدن المصرية ٠ أما الخانات فهى ساحات واسعة٠واما القيسارية فلعل اسمها محرف عن الكلمة اللاتينية Caesarea التى كان الرومان يقيمونها فى مدنهم كمستودع للبضائع وكانت القيساريات كثيرة فى مصر ٠ ولا تزال هناك أماكن الاسواق المسقوفة فى كثير من المدن المصرية ، ويطلق عليها القيساريات ، وعادة ماتحيط بالمسجد ٠ وقدكانت معظم الاسواق مبلطة أو يبنى على جانبيها افريزان يمشى عليهما الناس فى زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطا(٥٩) ٠ ويصف المقريزى هذه الاسواق بأنها مغطاة بالسقائف وبعضها يضاء ليلا ونهارا بالقناديل لان الضوء لا يصل الى داخلها ٠

ولقد كان بالقاهرة أسواق متخصصة ٠ كسوق العطارين ، النحاسين وغيرها ، وبالاسواق وكالات لبيع السجاد والذهب والفضة والحـــــرير والاحجار الكريمة ٠ ولكل طائفة وكالة ٠ كما كان للاجانب من التجار وكالات منها : وكالات الاتراك ، واليمنيين ، والفرس ، والمغاربة ، والهنود ، ولقد كان بالمدينة اسواق فرعية تسد احتياجات السكان اليومية (٦٠) ٠

وقد اعتاد المسلمون خلال العصور الوسطى ان يسكنوا فى أماكنعملهم مما أدى الى خلق نظام الطوائف الحرفية ٠ فحول الاسواق امتدت الازقة

---

(٥٨) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ٠ ص ٣٥٠ ٠
(٥٩) ناصر خسرو : المرجع السابق ٠ ص ٥٨ ٠
(٦٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : (١٩٥٧) ص ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ٠

والشوارع التى تصطف على جانبيها دكاكين ذات واجهة مفتوحة تضم طوائف الصناع الذين يمارسون شتى الحرف كالنسيج ، والحفر والطرق على النحاس • والمنطقة التى يتوسطها المسجد وما يحوطه من طوائف حرفية هى أكثر اجزاء المدينة حركة ونشاطا وتماثل حى الاعمال المركزى فى المدن الحديثة • ولقد كان لهذه الطوائف أثرها فى اعطاء المدينة الاسلامية طابعا مميزا • كما كان تأثيرها على ادارة المدن ونظامها الاجتماعى ، حيث ظهرت شخصية المحتسب الذى الذى كان رمزا لسلطة البلدية ، وكان مستندا الى القاعدة الدينية « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » فلقد كان يراقب الاسعار ، ويفتش على الموازين والمكاييل ويراقب المخابز والمصانع والحمامات العامة ، وكان هذا النظام معروفا فى أسواق القاهرة وفاس وبغداد وغيرها من المدن الاسلامية • كما كانت الطوائف الحرفية تخضع لنظام اجتماعى وفكرى ذى صلة وثيقة بالطرق الصوفية • ولم يكن فى المدينة الاسلامية ثمة فاصل بين النشاط الدينى والنشاط الدنيوى(٦١) •

٧ ـ الحمامات العامة :

من عناصر المدينة الاسلامية الهامة الحمامات العامة • وليست الحمامات من ابتكار المسلمين ولكنها أخذت عن الشعوب التى سبقتهم • فلقد كانت الاسكندرية البطلمية تحتوى على آلاف الحمامات العامة عندما فتحهاالعرب، وكل ما حدث بعد الفتح الاسلامى أن أخذ الحمام الطابع الاسلامى ، فأزيلت منه الصور والتماثيل • ولقد عرفت آداب اشبه ما تكون بتلك التى تتبع عند ارتياد حمامات السباحة فى الوقت الحاضر فهناك آداب معينة فى دخول الحمام ، كما يمنع دخول ذوى الامراض المعدية كالمجذوم والابرص •

وقد كثرت الحمامات العامة خلال العصر الاسلامى ، فلقد بلغ عددها فى الجانب الشرقى من بغداد خمسة آلاف حمام(٦٣) ، وفى قسمى بغداد بلغ عددها فى القرن الرابع الهجرى عشرة آلاف كما وجد بالفسطاط ألف

---

(٦١) يوسف ابيس : المرجع السابق ص ، ص ١٩ ١٠ ، آدم متز : المرجع السابق ص٢٨٠ •
(٦٢) على ابراهيم حسن : المرجع السابق • ص ٣٦٠ •
(٦٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق • ص ١٧٠ •

ومائة وسبعون حماما · ويذكر انه كان فى قرطبة فى الاندلس ثلاثمائة حمام(٦٣) · ومهما كان فى هذه الارقام من مبالغة الا أنها تشير الى أن الحمام كان من المرافق الهامة التى اشتملت عليها المدينة الاسلامية ·

٤ ـ تخطيط المدينة الاسلامية :

من تتبع الخطط التى انشئت عليها المدن الاسلامية نلحظ ما يأتى :

١ ـ أن المدن القديمة التى أحياها العرب وعملوا على ازدهارها احتفظت بسابق خطتها فلقد احتفظت كل من الاسكندرية ودمشق وقرطبة وغرناطة بخططها الشبكة وبتأمل خريطة دمشق رقم (٤) بعد انتقالها الى الحكم الاسلامى نجدها وقد احاط بها السور الرومانى الذى يضم ستة أبواب ، ويخترق المدينة شارعان رئيسيان يتقاطعان وينتهى كل من الشارعين الى بابين فى سور المدينة ، ويتوسط المدينة المسجد الاموى الذى يقابله القصر الاخضر· وكذلك مدينة الاسكندرية التى كانت شوارعها تتقاطع بزوايا قوائم ولم يغير دخولها تحت الحكم الاسلامى من هذا التخطيط وكان الشارعان الرئيسيان فى الاسكندرية كانوب الذى يصل بين باب الشمس فى الشرق وباب القمر فى الغرب وشارع السوما الذى يتقاطع مع شارع كانوب · ويمثل التقاء الشارعين الميدان العام · ولقد كان التغيير الذى طرأ على الاسكندرية بعد الفتح الاسلامى ظهور المسحة الاسلامية على المدينة فقد بنيت بها العديد من المساجد والزوايا ·

أما سامراء فهى نموذج للمدينة التى اسست خلال الدولة الاسلامية· وقد انشئت لتكون مقرا للجنود الاتراك وقد شيدت على ضفة نهر دجلة الشرقية ، وامتدت زهاء عشرين كيلومترا متخذة الشكل الشريطى وكانت شوارعها متوازية تتقاطع بزوايا قوائم ويتوسطها على طول المدينة الشارع الاعظم الذى بلغ عرضه مايزيد على مائتى ذراع · وهى فى ذلك تذكرنا بالتخطيط الاغريقى والرومانى للمدن ولو انهاتحمل السمات الاسلامية اذ كانت تتوسطها دار العامة وبيت الخلافة وقصر الجوسق على نهر دجلة وقصر لؤلؤة كما بنى فيها المسجد الجامع الذى أسلفنا الحديث عنـه كما اشتملت على حلبات للسباق وحديقة للحيوان وهى فى ذلك تشبه المدن الاغريقية والرومانية بمسارحها وحمامات السباحة التى كانت تقام بها ·

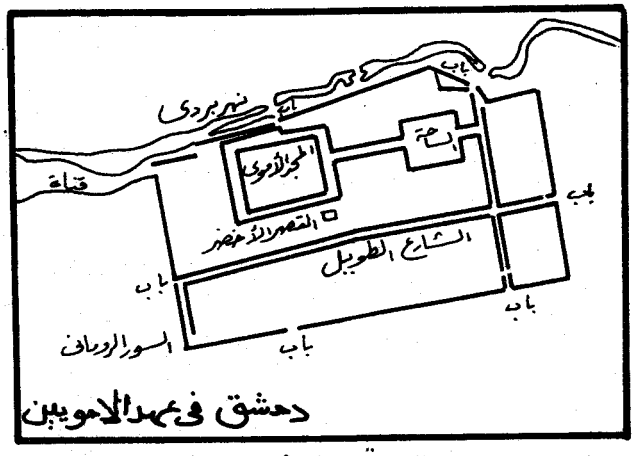

(خريطة رقم ٤)

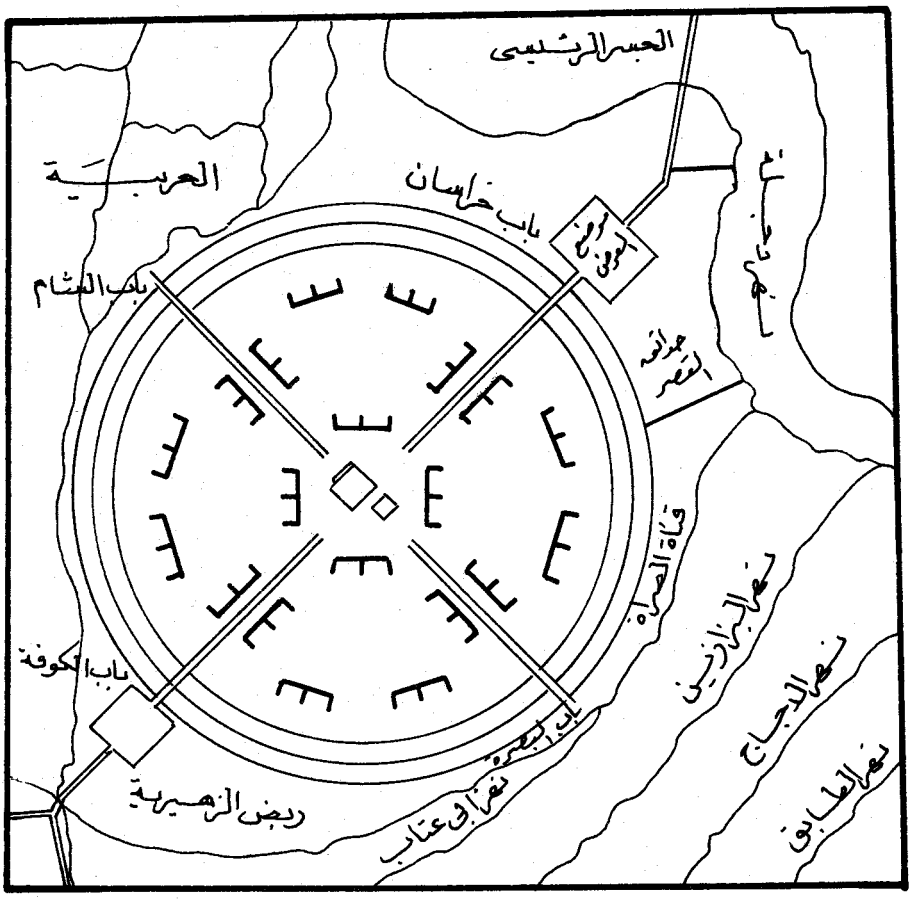

بغداد
في عهد المنصور

أما القاهرة فقد شغلت فى أول الامر رقعة مربعة من الارض بلغت مسحتها ٣٥٠ فدانا بنى حولها سور منخفض من اللبن له ثمانية أبواب ٠ ويبدو أن جوهر الصقلى كان يحمل معه خطة ذات طابع اغريقى رومانى وكان أهم معالم هذه الخطة شارع رئيسى يمتد من الشمال الى الجنوب وتتقاطع معه شوارع عرضية متوازية تمتد من الشرق الى الغرب وهى تشبه فى خطتها مدينة سامراء ولقد ظلت القاهرة حتى أواخر الدولة الفاطمية مدينة مخططة قليلة السكان لا يزيد سكانها على ١٠٠ ألف نسمة وباستيلاء صلاح الدين على مقاليد الحكم فى مصر بدأت مرحلة جديدة فى حياة القاهرةفتغيرت خطتها(٦٤) ٠

٢ ـ من الخطط التى اتبعت فى انشاء المدن الاسلامية الخطة الحلقية الاشعاعية والمتأمل فى تخطيط مدينة بغداد عند انشائها (انظر الخريطة رقم ٥) يلحظ أن المدينة مستديرة الشكل يبلغ قطرها ما يقرب من ثلاثة الآف متر اذا اعتبر السور الخارجى للمدينة حدا لها ٠ وقد قسمت المدينة الى أربعة أقسام متساوية وفى وسطها قصر الخليفة والمسجد ودار حراسه ومنازل أولاده ومن يقوم بخدمتهم وقصور الامراء ورجال الدولة ٠ ومن قلب المدينة حيث المسجد الجامع وقصر الخليفة والدواوين والثكنات تتشعباربعة شوارع رئيسية يصل أولها الى باب خراسان ومنه الى خارج الاسوار الى موضع تقام فيه العروضويحيط به الحدائق ، ويمتد الى الجسر الرئيسى عبر نهر دجلة ٠ ويصل ثانيها الى باب الشام حيث توجد فى خارجه بعض المنشآت كالسجن وبعض الرحبات والقصور ٠ أما الشارع الثالث فيصل الى باب الكوفة الى خارج الاسوار حيث يوجد مسجد ودار للحرس وديوان للصدقة واسطبلات وثكنات للهجانة والشارع الرئيسى الرابع يصل من قلب المدينة الى باب البصرة وينتهى خارج الاسوار الى الجسر الجديد حيث يوجد عدد من المساجد والقصور ٠ وبتتبع نمو المدينة نجد أن المبانى امتدت حلقاتها حتى وصلت الى أسوار المدينة فلما ضاقت المدينةبسكانها اقطعالمنصور قواده وعماله قطائع وارباضا خارج الاسوار وامتد العمران على الضفة اليمنى حيث شيدت الرصافة التى كانت مقراً لثكنات الجند ثم شيدت الكرخ الى جنوبها ٠ وبامتداد الرصافة على الجانب الايمن للنهر والكرخ فى

---

(٦٤) عبد الفتاح وهيبة : المرجع السابق ٠ ص ٢٦٠ ٠

الجنوب أصبحت المدينة مجمعا مدنيا متعدد النوى ٠

٣ ـ أما المدن الاسلامية التى لا تخضع لتخطيط أو التى ضاعت معالم خطتها مع النمو غير المنتظم العشوائى ٠٠ فمنها مدينة «فاس» التى كانت ولا تزال ذات شوارع ملتوية يحتشد على جانبها اعداد كبيرة من أصحاب الحرف ، كما أن كثيرا من هذه الشوارع التجارية والقيساريات مسقوفة بالبوص المجدول كما سبق ان أشرنا(٦٥) ولا تزال هذه المدينة تحتفظ بطابعها رغم مرور ما يقرب من اثنى عشر قرنا على انشائها بل وتعمل الحكومة المغربية على المحافظة على طابعها الاسلامى التاريخى الى جانب الاخذ بالاساليب الحديثة فى تخطيط المدن(٦٦) ٠

ومدينة القاهرة فى عهد صلاح الدين أى منذ سنة ١١٧١م أصبحت مدينة مفتوحة للكافة وازداد عدد سكانها الى نحو ١٥٠ ألف نسمة بعد أن كانت مدينة ملكية خاصة بالوالى وحاشيته وجنده ٠ وكان من اثر ذلك ازدحام المدينة وتغير ملامحها وخططها فتحولت البساتين الى حارات وشوارع ومسالك وأزقة ٠ كما بلغت القاهرة غاية ازدهارها فى العهد المملوكى خلال الفترة (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) وقد سمى المماليك فى هذه الفترة « السلاطين البناؤون » وكان من نتيجة تزاحم المبانى بغير نظام ان ضاقت السبل وكثرت الازقة والدروب المسدودة واتصل عمران الفسطاط بعمران القاهرة وأصبحت مدينة واحدة(٦٧) ٠

كيف واجهت المدينة الاسلامية مشكلاتها اليومية ؟

تظهر شخصية المدينة الاسلامية اذا تتبعنا كيفية مواجهتها لمطالبها اليومية من غذاء ومياه الشرب والتخلص من الفضلات والنقل فى المدينة واتصالها بغيرها من المدن فكل هذه مشكلات تظهر مع التحضر وزيادة احجام المدن وقد اتبع المسلمون أسلوبا معينا فى تلبية احتياجات مدنهم اليومية ٠

---

(٦٥) يوسف ابيش : المرجع السابق ٠ ص ١١ ٠
(٦٦) نفس المرجع : ص ١١ ٠
(٦٧) عبد الفتاح وهيبه : المرجع السابق ٠ ص ٢٦٧ ٠

فمن حيث الحصول على مياه الشرب :

نالت مشكلة الحصول على مياه الشرب فى المدن الاسلامية اهتماما كبيرا فقد نظر المسلمون الذين وفدوا من بيئة صحراوية الى ماء الشرب بعين البدوى الذى يعانى من شح الماء فضلا عما يدعو اليه الدين من عدم الاسراف فى كل شىء حتى الماء • ولهذا لم تبلغ مجارى مياه الشرب من الكبر مابلغته مجارى المياه عند السابقين • ولهذا كانت مجارى المياه فى قرطاجنة مـــن المستغربات لدى المسلمين بسبب ضخامتها(٦٨) وقد عرفت سمرقند كيف توزع ماء الشرب فيها بواسطة شبكة متكاملة من الانابيب التى تأخذ مياهها من خزانات كبيرة • ويصف لنا الاصطخرى كيف يوزع ماء الشرب فى مدينة سمرقند فيقول « وقل ما رأيت خانا أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس الى حائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل ، وذكر لى من يرجع الى خبره أن بسمرقند فى المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على الفى مكان يسقى فيه الماء الجمد مسبلا عليه الوقوف من بين ساقيه مبنية وجبات منصوبة»(٦٩) •

أما مدن ايران فكانت تعتمد فى حصولها على ماء الشرب على تلك القنوات المحفورة فى باطن الارض • ويصف لنا الاصطخرى هذه القنوات التى كانت تغذى نيسابور بماء الشرب فيقول « وأكثر مياهها قنى تخرج تحت مساكنهم وتظهر خارج البلد فى ضياعهم ولها قنى تظهر فى البلد وتجرى فى دورهم وبساتينهم داخل البلد وخارجا عنه»(٧٠) كما كانت قرطبة تجلب المياه من جبالها على مسافات بعيدة عن طريق قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة أودع فى جوفها انابيب الرصاص لتحفظها من كل دنس(٧١) وكان امداد مدينة مكة بالماء يتم عن طريق تلك القناة التى أمرت بانشائها السيدة زبيدة • وقد بذلت الجهود لصيانة هذه القناة والعناية بها وحفر مزيد من

---

(٦٨) ياقوت الحموى : المرجع السابق جـ ٤ ص ٥٨ •
(٦٩)الاصطخرى : المرجع السابق • ص ٢٩ •
(٧٠) نفس المرجع : ص ٢٥٥ •
(٧١) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق • ص ١٠٥ •

الابار التى تزودها بالماء ٠

وقد استطاعوا رفع المياه الى الاجزاء المرتفعة من المدن والى القـــلاع بواسطة الدواليب التى تديرها الابقار كما هو الحال فى مدينة القاهـــرة حيث توجد قناة فى السطح العلوى لقناطر معلقة « مجرى العيون » تمتد من النيل الى القلعة ٠ وكانت ترفع اليها المياه من النيل كى تزود القلعـــة بالمـــاء ٠

أما المدن التى كانت تحصل على مياه الشرب من الانهار فمن أمثلتها القاهرة وبغداد ويصف لنا المقدسى توزيع الماء فى مدينة القاهرة فيقول «ولهم مشارع على الشط يحملون منها الماء فى الروايا ويصعدون كل طبقة بنصف دانق » ويستخدم ماء النيل بعد تخليصه مما يعلق به من شوائب باستخدام نوى المشمش ويواصل المقدسى حديثه عن ماء النيل كمصدر للشرب فى القاهرة فيقول « ويكدر ماؤه أيام زيادته فيلقون فيه نوى المشمش المرضوض ليصفو» (٧٢) ٠

وفى بغداد كان أهلها يشربون من نهر دجلة ، وكان السقاؤون يأخذونه اما من النهر مباشرة ويحملونه الى دور أهل اليسار أو من مواضع تقوم مقام الخزانات وتغذيها نهيرات صغيرة بل كانت هناك قناتان يجرى فيهما الماء الى المدينة ، وكلاهما مغطاه ومحكمة العقد(٧٣) ٠ ويصف لنا الاصطخرى كيفية تزويد بغداد بمياه الشرب فيقول « وأما الاشجار والانهار التى فى الجانب الشرقى ودار الخلافة فانها من ماء النهروان وتامرا وليس يرتفع اليها من ماء دجلة الا شىء يسير يقصر عن العمارة وينضح بالدواليب ، وأما الجانب الغربى فانه قد شق اليه من الفرات نهر عيسى ٠٠٠ وينتهى آخر نهر عيسى الى دجلة فى جوف مدينة بغداد »(٧٤) كما اعتمدت بعض المدنالاسلامية على مياه المطر فى الشرب حيث كانت تقام أحواض تعرف باسم « مصانع »

---

(٧٢) المقدس : المرجع السابق ٠ ص ٢٧٦ ٠
(٧٣) آدم متز : المرجع السابق ٠ ص ٢٧٦ ٠
(٧٤) الاصخرى : المرجع السابق ٠ ص ٨٣ ٠

لجمع مياه المطر مثل تلك المصانع الباقية بالقرب من مدينة القيروان ٠

وواضح مما سبق ان المدن الاسلامية روعى عند انشائها ان تتوافر موارد مياه الشرب وان يؤمن احتياجات سكانها من الماء بتنظيم عملية توزيع المياه ٠ ولقد استغلت مخلفات المدن من المياه والفضلات فى التسميد ٠ ولهذا كان للفضلات تجار يزايدون عليها ولقد كان بالبصرة تجار للمخلفات الآدمية (٧٥) ٠

النقل :

أشرنا الى اتساع المدينة الاسلامية وضخامتها فى العصور الوسطى بالمقارنة بمدن أوربا ، فمدينة الفسطاط كانت تمتد على ضفة النيل الشرقية قرابة الخمسة كيلومترات وبعرض كيلومتر واحد ٠ ومدينة سامراء التى بنى لها امتداد فى شمالها يتمثل فى المدينة المتوكلية بلغ امتدادها طوليا ما يقوب من عشرين كيلو مترا ٠ كما أن قطر مدينة بغداد المستديرة الشكل نحو ثلاثة كيلو مترات ولهذا ظهرت مشكلة الحاجة الى وسائل النقل فى المدن الاسلامية ، حقيقة كانت أساليب النقل بدائية فى القرون الوسطى فلقد استخدمت الحمير كوسيلة للانتقال تستخدمها الطبقة الوسطى من أهل المدن ٠ ففى بغداد كان الحمارون يتجمعون عند باب الكرخ وهو مدخل القسم التجارى ٠ كما استخدمت الحمير أيضا كوسيلة للانتقال فىالفسطاط خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين(٧١) ٠

أما المدن التى تقع على الانهار كالفسطاط وبغداد والبصرة فقد استخدمت القوارب أيضا للانتقال فيها ٠ ويحدثنا الاصطخرى عن استخدام السفن فى التنقل فى بغداد والمدن القريبة منها فيقول « وينتهى آخر نهر عيسى الى دجلة فى جوف مدينة بغداد وأما نهر عيسى فان السفن تجرى فيه من الفرات الى أن يقع فى دجلة واما الصراة فان فيها حواجز تمنع من جرى السفن فتنتهى السفن منها الى قنطرة الصراة ثم يحول مافيها ويجاوز به ذلك

---

(٧٥) آدم متز : نفس المرجع ٠ ص ٢٧٨ ٠

(٧٦) آدم متز : المرجع السابق ٠ ص ٢٧٨ ٠

الحاجز الى سفن غيرها » (٧٧) ويظهر من النص أنه رغم وجود الحواجز فى المجرى المائى الا أنه امكن التغلب على تلك المشكلة بأن يتم النقل على مرحلتين على جانبى الحاجز ٠

وقد كان للقاهرة ميناؤها الهام على النيل فى بولاق والذى ظـــل الميناء الرئيسى للقاهرة حتى أواخر العصور الوسطى ٠ وترتبط القاهرة بغيرها من المدن بل بغيرها من الاقاليم عن طريق هذا الميناء فضلا عن دوره فى الملاحة المحلية والنقل على امتداد شاطىء النيل فى القاهرة ٠ وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب فتصله السلع من الاسكندرية عن طريق فرع رشيد ومن موانىء الشام وتركيا عن طريق فرع دمياط ٠ ومن الجنوب سلع الحبشة والنوبة(٧٨) ٠

وبعد فيبدو واضحا أن المدينة الاسلامية ذات شخصية واضحة لم تذب أو تطمس فى شخصية المدن الاخرى ولو أنها افادت كثيرا من المدن السابقة فبالرغم من اشتمالها على كثير من عناصر المدينة الاغريقية الا أنها كان لها طابعها وشخصيتها التى ظهرت فى هذه العناصر فأسوارها تختلف عن أسوار المدن الاغريقية وقد أوضحنا ان الصليبيين أخذوا عن العرب نظام الابراج المقامة على الاسوار للدفاع عنها كما ادخل المسلمون الحمامات العامة الى مدنهم لكنها كانت ذات طابع مختلف عن الحمامات الاغريقية وازيل ما بها من تماثيل وصور ووضعت لها القواعد التى تتفق مع مبادىء الدين الاسلامى ، كما الحقت البساتين بكثير القصور كما كان سائدا فى مصر وبلاد فارس ولكن المسلمين استطاعوا ان يطورا هذه البساتين بطريقة جعلت البساتين فى المدن الاسلامية يطلق عليها البساتين الاسلامية لما تميزت به من مزروعات وتنظيم لم يعرفه الا العرب ٠ وفى تخطيط المدن أخذ المسلمون عن الاغريق والرومان خطة الزوايا القوائم ، ولكن من المعالم الرئيسية التى اشتملت عليها المدينة الاسلامية المسجد الذى أقيم فى ملتقى الشارعين الرئيسين فى المدينة كما ظهرت الخوانق والرباطات كما كانت المدينة الاسلامية أسبق فى بلوغها

---

(٧٧) الاصطخرى : المرجع السابق ٠ ص (٧٤ ـ ٨٥) ٠

(٧٨) نعيم زكى : المرجع السابق ص ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠

حجما كبيرا لم تبلغه أى مدنية سابقة وتعددت طوابق مبانيها بشكل واضح وكان للعمارة الاسلامية شخصيتها التى أخذت عنها كثير من الامم بعـــد ذلك ٠

ونستطيع أن نجمل صورة **لمورفولوجية المدينة** الاسلامية خلال فترة ازدهارها والتى نلمحها فى كل المدن الاسلامية سواء فى آسيا أو شمالى افريقية :

١ ــ مركزية المسجد الجامع فى المدينة وتوسطه لاقدم أحياء المدينة ، اذ يمثل المسجد نواة المدينة ٠

٢ ــ احاطة السوق للمسجد الجامع ، مع وجود الخانات والوكالات مجاورة للاسواق ووجود مقار الطوائف الحرفية فى هذا النطاق ٠ وشيوع ظاهرة التخصص فى بيع سلعة واحدة ، وتجاور أصحاب السلع المتشابهة ٠

٣ ــ وجود الاحياء السكنية المنفصلة عن بعضها (قطائع) بسبب صلة القرابة أو المهنة ٠

٤ ــ وجود الشوارع الضيقة والازقة المغطاة التى اطلق عليـــها السقائف ، وخاصة فى مناطق الاسواق لحماية المارة ورواد السوق من أشعة الشمس ومن المطر وتكاد تتشابه كل المدن الاسلامية فى ذلك ٠

٥ ــ وجود الاسوار حول المدينة ، بل كثيرا ما ازدوجت الاســـوار واحيطت بالخنادق التى تملأ بالماء وقت الحاجة ٠ كما ظهرت البوابات الضخمة التى تقفل على الاحياء وازداد انتشارها فى فترات اختلال الامن والفتن والصراع بين الطوائف ٠

بعض المراجـــع

١ ـ **ابن شاهين :**
زبدة كشف المماليك تحقيق رافايسية طبع باريس ١٨٩٤ ٠

٢ ـ **آدم متز :**
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٠ الترجمة العربية لمحمد عبد الهادى أبو ريده دار الكتاب العربى بيروت ط ٤ ١٦٩٧ ٠

٣ ـ **الاصطخرى المعروف بالكرخى :**
« مسالك الممالك » نشر ديجويه من منشورات مكتبة الصدر ٠ طهران االطبعة الثانية ١٩٢٧ م ٠

٤ ـ **أنور الرفاعى :**
الاسلام فى حضارته ونظمه الادارية والسياسية والادبية والعلميـــة والاجتماعية والاقتصادية والفنية ٠ دار الفكر بيروت ١٩٧٣

٥ ـ **جلال مظهر :**
حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى ٠ مكتبة الخانجىالقاهرة١٩٧٤م

٦ ـ **جمال جمدان :**
جغرافية المدن الطبعة الاولى ٠ القاهرة ٠ بدون تاريخ ٠

٧ ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
دراسات فى العالم العربى ٠ القاهرة ١٩٥٨ ٠

٨ ـ **سعيد عبد الفتاح عاشور :**
المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ٠ القاهرة ١٩٥٧ ٠

٩ ـ **الطبرى : أبوجعفر محمد بن جرير :**
«تاريخ الرسل والملوك » طبع بريل ليدن ١٨٧٩ ـ ١٨٩٨ (١٨مجلدا)٠

١٠ـ عبد الفتاح وهيبه :
« فى جغرافية العمران » دار النهضة العربية · بيروت ط ١سنة ١٩٧٢

١١ـ عبد المنعم ماجد :
« تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور والوسطى » مكتبة الانجـــلو المصرية » القاهرة المطبعة الثالثة ١٩٧٣ ·

١٢ـ على ابراهيم حسن :

« التاريخ الاسلامى العام » مكتبة النهضة المصرية القاهرة١٩٧٢·

١٣ ـ محمد · أ · سناسير :

« مدن ازدهرت فى الصحراء » مجلة رسالة اليونسكو العدد١٩٩ · فبراير ١٩٧٨ م ·

١٤ـ محمد السيد غلاب ـ محمد صبحى عبد الحكيم :
«السكان ديموغرافيا وجغرافيا» مكتبة الانجلو المصرية القاهرة · الطبعة الثالثة ١٩٧٤ م ·

١٥ـ المقدسى المعروف بالبشارى :
« أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » طبع بريل · ليدن الطبعة الثانية ١٩٠٦ م

١٦ـ ناصر خسرو :
« سفرنامة » الترجمة العربية · يحيى الخشاب · الطبعة الاولى القاهرة ١٩٤٥ م ·

١٧ـ نعيم زكى :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها · الهيئة المصرية للكتاب · القاهرة سنة ١٩٧٣ م ·

١٨ـ ياقوت الحموى ـ شهاب الدين أبى عبد الله :
« معجم البلدان » دار صادر ، دار بيروت ٠

١٩ـ يوسف أبيش :
الحفاظ على مدينة فاس التاريخية مجلة رسالة اليونسكو ٠ العدد ١٩٩ ٠ فبراير ١٩٧٨ م ٠

٢٠ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
اخوان الاسواق « نظام الطوائف الحرفية » مجلة رسالة اليونسكو العدد ١٩٩ فبراير ١٩٧٨ ٠

٢١ ـ Fitzgerald, W., "Africa" London., 1955